ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

التحليل الدرامي للطلل

- معلقةامرئ القيس-

الأستاذة: قاع الكاف سامية
كلية الآداب واللغات-قسم اللغة والأدب العربي
جامعة الجزائر02

Résumé :

l'édition d'oumrouo el kais est permis les grandes édition vu ce qu'il se compose des fait bien écrite et explicatif d'un cas d'un poète qui est unique et d'une volonté d'être un héro qui est une bonification personnelle. le poète qui voulait dépasser le malheur existant et le drame de la vie , la crise existante qui lui partage la vie et qui est le problème existant , et pour cela le poète du passé ou il va étudier l'affaire d'une crise sociale et que sa vie privé n'est pas seule mais ensemble avec l'entourage pour une bonne relation juste et sérieuse contre les problèmes de la vie et la mort et la volonté de rester sans passer l'univers et le reste c'est des images philosophiques du poète et son point de vue de la vie.

الملخص:

تعد معلقة امرؤ القيس واحدة من المطولات التي تتألف فيها الأغراض و تتكامل للتعبير عن موقف شعري واحد، أو مقولة واحدة هي " الرغبة في الانتصار " و هو انتصار يبدعه، الشاعر فنيا لأجل أن يتجاوز مأساة الواقع، و دراما الحياة، و أزمة المصير التي تسكن وعيه و تتعس حياته، إنها المشكلة الوجودية الكبرى. لهذا فإن الشاعر الجاهلي حينما يتناول هذه القضية فإنه في الحقيقة يعبر عن هم جماعي، و إن ذاتيته ليست إلا جماعية مقنعة و معلقة بذلك تنطوي على توتر عام تغذيه جملة من العلاقات الجدلية المتصارعة، صراع الحياة و الموت، إرادة البقاء و إرادة

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

الفناء، و ما سوى ذلك من صور المفارقة التي تعبّر عن فلسفة الشاعر، و موقفه إزاء هذه المشكلة.

كشفت الجهود التي سخرت لدراسة الظاهرة الطللية في الشعر الجاهلي عن تفسيرات عديدة ومختلفة,قد تتفق عند البعض كما قد تصل إلى حد التعارض عند آخرين . فهناك من ربطها بالبيئة ,وثمة من عللها بالواقع الاجتماعي ,وكذا بالجانب النفسي ,وآخرون انطلقوا في فهمهم لها من مضمون الفلسفةالوجودية ,وهكذا .

وأول من نستعرض رأيه في هذا المجال , ابن قتيبة من خلال ذلك النص النقدي الشهير الذي ينسبه إلىغيره ويتبناه في الوقت نفسه , حيث يقول مفسرا قطعة الطلل والنسيب : " وسمعت بعض أهل الأدب يذكرأن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيه بذكر الديار والدمن والآثار ,فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها , إذا كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم من ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألمالفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ., وليستدعي إصغاء الأسماع إليه, لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب , لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء .[1]

الواضح من هذا النص أن ابن قتيبة يعلّل للظاهرة الطللية بجانبين أساسيين , احدهما يتعلق بالناحية الاجتماعية والثاني بالناحية النفسانية . فعن الأولى يرى أن الطلل هو نتاج ذلك النمط الاجتماعي البدوي الذي يعتمد الحركة والترحال الدائم . وأن الشاعر يقف عليه لا لشيءإلا ليجعله مطية وسببا لذكر أهله الراحلين عنه أما الركيزة النفسانية فيقترحها لتفسير قطعة النسيب , ذلك أن الغزل أكثر استمالة للمتلقي (لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب).

ولعل أهم ما يؤخذ على تفسير ابن قتيبة هو السطحية , ذلك أن الركيزتين الاجتماعية والنفسانية ليستاإلاسببين مباشرين ظاهرين يخفيان وراءهما نواة الطللية وجوهرها الحقيقي . كما أن ما يلاحظ على فهم ابن قتيبةهو أنه يركز فقط على المتلقي , حيث يعتبر النسيب أداة يصطنعها الشاعر لاستمالة المستمع وشد

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

انتباههوأهمل في ذلك كل الإهمال ذاتية المبدع أو تجربة الشاعر التي لا يمكن بأي حال من الأحوال فصلها عن عمله الإبداعي . خاصة وقد تعلق الأمر هنا بمقطع النسيب – والطلل جزء منه- والذي يمثل على تعبيرعز الدين إسماعيل "الجزء الذاتي في القصيدة ".[2]

وقد إنتقد عبد الله التطاوي ابن قتيبة في هذه الزاوية حيث ذكر أنه انطلق في تفسيره :"من منطلق وظيفي شغل فيه – أول ما شغل بالمتلقي – وتجاهل أكثر ما تجاهل دور المبدع وأهمية تجاربه الذاتية ".[3]ومن هذه المواقف النقدية أيضا , تفسير يوسف خليف الذي مفاده أنَّ الشاعر الجاهلي كان يقف على الطلل للتخفيف من وطأة الفراغ الذي كان يعيشه في صحرائه الممتدة . وهذا ما يفهم من قوله : " فهذا القسم الذاتي من القصيدة الجاهلية : مقدماته باتجاهاتها الممتدة ,وما يتصل بها من حديث الصحراء ,إنَّما هو في حقيقة أمره . محاولة لإثبات وجود الشاعر الجاهلي أمام مشكلة الفراغ في حياته .[4]غير أنالمتأمل للطلل في الحقيقة لا يلمس فيه جدوى للتلهي أو تمضية الوقت بقدر ما يجد فيه موضوعا خصباللتأمل وإعمال الفكر , بل والتفلسف إن صح التعبير .ولا يكاد يبتعد عنه حسين عطوان الذي يرى في وقوف الشاعر على الطلل فرصة لاسترجاع شريط الذكرياتوالحنين إلى الماضي الذي يمثل بالنسبة له مرحلة مشرقة , مرحة من حياته . فهو يلخص موقفه قائلا :"وقدرجحنا أن تكون المقدمات ضربا من الذكريات والحنين إلى الماضي"[5].والذي يعيد النظر في التفسيرين ,لا شك يلاحظ هذه المباشرة والسطحية في فهم الظاهرة الطللية , فنحن وان سلمنا بأن الطلل حل لازمة الفراغ القاتلة ,أو أنه نوع من التذكر والحنين فإن الذي نظل نلح في طلبه هو محاولة الكشف عن الأبعاد العميقة التي تختفي وراء هذين التفسيرين , ولا يتأتى ذلك إلا بالبحث في رمزية الطلل ,إذ لا يمكن لهذه الظاهرة التي تداولها الشعراء في شعرهم بشكل واسع جدا أن تقف عند حدود البقايا والرسوم البسيطة التي تعلق بالأرض . ثم مابال سكان المدن من الشعراء الذين التزموا بهذا التقليد , وليس لهم علاقة مباشرة بالطلل ؟, إنَّهذا ما يؤكد انَّه يتجاوز المشهد الخرب المهدم ليتحول إلى أداة فنية وموضوع لتجليات الفكر العربي في ذلك العصر.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

كما أن كلا الناقدين يعتبران الطلل تقليدا فنيا متوارثا .ويفهم من ذلك أن هذا القسم من القصيدة لا يمثل إلا قوالب فنية جاهزة يلتزمها الشعراء لتلبية مذهب المؤسسين , وهذا مايغيب تجربة الشاعر وذاتيتهوفكره .وعندما ننتقل إلى يوسف اليوسف , فإننا نلمس في تفسيره نوعا من العمق حين رأى أن الطللية تعكس ثلاثة أبعاد أساسية تتمثل في : القحل الطبيعي والانهدام الحضاري والقمع الجنسي .حيث يذكر ما نصه:"

البرهة الطللية إذا التغام لثلاث لحظات .... وفي ميسورنا أن نجمل هذه العناصر الثلاثة بأنها :القمع الجنسي والاندثار الحضاري وقحل الطبيعة "[6].وهيتنصهر جميعا في لحظة واحدة "هي ما يمكن أن تحتقبه "تاناتوس"غريزة الموت والهدم القائمة في الأشياء"[7].ويلخص يوسف اليوسف نظريته في الطللية بقوله :"إن عقدة العقم (في الطبيعة والحضارة والإنسان ككائن متوالد)هي أسس الطللية ونواتها التي تتمحور حولها وتتنامى بالانبثاق عنها ".فهو يرى أن جوهر الطللية متعلق بالقهر الذي تتلقاه الطبيعة وتمارسه في ذات الوقت على الحضارة والإنسان .إذ تكونسببا في التهدم الحضاري بسبب قواها السالبة ,وعامل عدم الاستقرار الذي لا يمكن أن تقوم معه حضارة كما أنها تكون سببا في عقم الإنسان ككائن متوالد بفعل ما تفرضه عليه من ترحال دائم يحول –كما تعكس الطللية –بين الشاعر وحبيبته ,بالإضافةإلى ما يقره المجتمع من حظر جنسي من خلال الأعراف والتقاليد.

وإذا كنا نوافق فهم يوسف اليوسف في شقيه الطبيعي والحضاري فإننا نسجل تحفظا عما اسماه بالقمع الجنسي إذاأن ما نقل إلينا عن مجتمع العرب في الجاهلية لا يحدثنا عن صرامة تامة في هذا الجانب أو حظر بكل ما تحمله الكلمة من معنى,وإذا كنا لا نختلف في أن العرب كان يقدس قضية الشرفوالحرمات فان هذا لايعني أنهناك ما يمنع الرجل من المرأة , بل ربما نذهب إلى القول انطلاقا مما نعرفه عن هذا العصر انه كانت هناك إباحة جنسية واضحة.

غير أنيوسف اليوسف يكون قد لامس الحقيقة حينما أشار إلى ظاهرة العقم في الموجودات بصفة عامة وربطها بظاهرة التصحر وقساوة الطبيعة .وبنى على ذلك أن غريزة الموت "تاناتوس" هي محور الطللية وهي بالتالي مايشغل فكر الشاعر الجاهلي

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ويتعس ضميره . فعبَّر عن ذلك من خلال الطللية التي لا تخلو من هذا الحس المأساوي .

من هنا يمكن القول أن تفسير يوسف اليوسف لا ينأى كثيرا عن فهم أصحاب النزعة الوجودية التي يمثلها كل من عز الدين إسماعيل وفالتربراونه .أما فالتربراونه فيرى أن الطللية تعبر عن موقف وجودي للشاعرالجاهلي يعكس توتره الواضح في علاقته مع الوجود , نتيجة خوفه من الفناء الذي هو مصيره الحتمي ولهذا اعتبر موضوع النسيب هو الذي حرَّك الإنسان في كل زمان ومكان .ويتمثل هذا الموضوع في "اختبار القضاء والفناء والتناهي "غير أن ما يلاحظ على تفسير هذا المستشرق هو أنه ينطلق من أفكار فلسفية مجردة ويجعل الشاعر الجاهلي يصدر عن مفاهيم غيبية , وهو بذلك يغيب العامل الاجتماعي والخلفية الطبيعية .وهذا مايؤكده يوسف اليوسف في رده على فالتربراونه :"إن الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي قد أملته شروط واقعية وليست ميتافيزيقية كما يتصور براونه "[8] يضيف قائلا :"إنإهمال المستشرق الألماني للحظة الاجتماعية كعامل أساسي في الطللية هو المسؤول الأكبر عن انفعالات الحقيقة من قبضته "[9] ويفهم من هذا الكلام أن يوسف اليوسف يقر هذا الموقف الوجودي للشاعر الجاهلي , لكنه يلح في اقتراح القهر الطبيعي جوهرا للظاهرة الطللية .

وأما موقف عز الدين إسماعيل فيكاد يكون صورة من تفسير براونه من أن الشاعر الجاهلي يكشف من خلال الطلل عن موقف وجودي إزاء العناصر الكونية الثلاثة: "التناقض , والفناء والتناهي ."[10] إلا أن ما يضيفه عز الدين إسماعيل هو أن النسيب ينطوي على ثنائية الموت والحياة لأنه يتضمن الأطلال التي تحيل على الموت والحبيبة التي تذكر بالحياة .وهو في هذا التفسير يستند وفق ما يذكرإبراهيم عبد الرحمان إلى مقولات "فرويد " , فرأى في الطللية "انعكاسا لذلك الصراع الأبدي في نفس الإنسان , وفي الحياة من حوله بين "أيروس" و"تاناتوس ,أي بين غريزة حب الحياة وغريزة الموت."[11]

ويضيف قائلا :"وتأسيسا على هذا التفسير الفرويدييصبح الحب والحياة متلازمين في نفس الشاعر : فالحب ضمان للحياة بما يعرف بغريزة حفظ الذات وغريزة حفظ

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

النوع , ومن ثم كان الفراق الذي يتعرض له الشاعر بمثابة التهديد المباشر الذي يتجه إلى ذلك الحب فينتهي بروح الشاعر إلى الجدب والإقفار كما يحل الخراب في تلك البقاع التي كانت من قبل تعج بالحياة ."[12]

وما يسجل على موقف عز الدين إسماعيل هو إهماله للبيئة والمجتمع كمصدرين أساسيين في بلورة الظاهرة الطللية .

أما أهم ما يستفاد من هذا التفسير وأقربه إلى فهم الظاهرة هو أنها تمثل انعكاسا لذلك الصراع الأبدي بين الحياة والموت.

ومن منطلق هذا الصراع سأحاول في الدراسة التطبيقية الموالية , الكشف عما تعكسه الطللية من جدل,وتوتر وما تصوره من –دراما الحياة – إن صح التعبير .

ولذا اهتديت إلى أن يكون العنوان المناسب لهذا التطبيق هو :التحليل الدرامي للطلل.

التحليل الدرامي للطلل:

لعله من الأهمية بمكان قبل البدء في التعامل مع النصوص ,أن نبيّن أولا القصد من التحليل الدرامي , لنقول إنه إجراء يقوم على كشف مظاهر الصراع من خلال رصد المفارقة , والوقوف عند العلاقات الجدلية التي تشيعها اللغة الشعرية , على أنها لغة رامزة لا على أساس أنها لغة ترصد الواقع كما هو وتقف عند حدود الوصف الخارجي المباشر.

هذه العلاقات الجدلية , أو بعبارة أخرى الثنائيات الضدية , قد تحققها الكلمة مفردة , فتعبر عن السلب والإيجاب في أن .وقد لا تقوى على ذلك إلا إذا صيغت ضمن تركيب معين .أو وظفت داخل سياق ما.

فاللغة في هذه الحال هي منطلق هذا التحليل , على أساس انها تمثل إشارات محمَّلة بتجربة الشاعر ورؤيته .أو فلنقل في هذا الصدد ,أنها الأداة المعبرة عن ذلك المضمون الفكري الذي صنعته -كما أسلفنا – قوى الفناء والبقاء أو صراع الموت والحياة المبثوث في العالم المحيط به, من طبيعة وحيوان وإنسان. وتأسيسا على هذ ا, علينا أن نحاول الإمساك بالكلمات المفاتيح , أو الحوامل التي من شأنها أن تجسد هذا

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

التضاد أو هذا التصادم , من خلال دراسة تطبيقية على نموذج من الطلل . طللية امرئ القيس :

تستوقفنا –أولا- أقدم طللية عند أول شاعر استوفت معه مقوماتها وتقاليدها الفنية ,إنها طللية الشاعر امرئ القيس التي تصدرتالمعلقة , والتي نصها :[1]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللّوَى بَيْنَ الدُخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فالمِقْرَةِ لَم يَعفِ رَسْمَها لِمَا نَسَجَتْهامِنْ جَنُوب وَشَمَـأْلِ

تَرَى بَعْرَ الآرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيعَانِهَا كَأَنَهُ حَبُّ فُلْفُـــلُ

كَأَنِي غَدَاةَ البَيْنِ يَوْمَ تَحْمِلُـوا لَدَى سَمَرَاتِ الحَيّ نَا قِفٌ حَنْظلِ

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُـمْ يَقُوُلُونَ لا تَهْلَكْ أَسَىً وَتَجَمّـلِ

وَإِنَّ شِفَا ئي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَـةٌ فَهَلْ عِنْدَ رسم دَارِسٍ من مُعـوّلِ

إنَّ أول كلمة نقراها في هذه الطللية هي فعل الأمر"قفا" في صيغة التثنية التي كثيرا ما استوقفت الشرَّاح القدماء , وقدموا بشأنها تفسيرات عديدة , فمن قائل أن الشاعر كان في صحبته صديق واحد ,وخاطبه بصيغة التثنية قاصدا بها تكرار الفعل – لفظيا –لأجل التوكيد والإلحاح على استيقافه ومن قائل انه كان في صحبته صاحبان .إلى غير ذلك من التأويلات والتفسيرات التي صدرت عن هؤلاء والتي هي في مجملها تكشف عن المعنى المباشر , أو بالأصح ,تتعلق بالكلام العادي الذي ينقل الواقع بأسلوب تقريري مباشر .وذلك ما يجافي الشعرية ,وينأى بلغة الشعر عن أهم خاصية لها ,ألا وهي خاصية الرمز التي تمكنها من الانحراف عن مدلولها القاموسي والنحوي, وتعبئتها بشحنة من الدلالات والأبعاد .

ولما كان الأمر كذلك ,فان الوقوف بكلمة "قفا" عند حدود هذا الفهم يجردها من شعريتها ,ويفرغها منأبعاد العميقة. إننا حينما ندخل إلى قراءة هذه الطللية من زاوية ما تصوره من دراما الحياة ,وأنها تعبير عن مأساة الإنسان العربي في صدامه ومواجهاته مع قوى الإفناء وفعل الزمن المدمر ,تجعلنا نفهم أن الشاعر سعى مند البداية إلى أن يتحصَّن بغيره . وألا يقف معزولا في مواجهة هذا القهر .انه في الحقيقة لا يستعين بصاحب أو صاحبين فحسب ,إنما يريد أن يكون في شيعة من

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

المناصرين ,بل قد نذهب إلى أكثر من هذافنقولأن كلمة "قفا "تحمل استصراخا ونداءا موجها للمجتمع ككل ,ليقف في وجه الزمن العاتي .يقول مصطفى ناصف :"ما من أحد ينسى قول امرئ القيس "قفا نبك" ,ومع ذلك فأنا أرى أن هذين اللفظين مازالاحتى الآن غامضين يحتاجان إلى مزيد من الجهد .....وأيسر النظر يدلنا على أن امرئ القيس يرى أن المجتمع محتاج إلى التنبه واليقظة .نحن اذن أمام صيحة خطيرة "[14] ذلك أن الشاعر في الطلل لا يحكي هما ذاتيا خاصا بل يعكس هما جماعيا وهاجسامرعبا يسكن ضمير المجتمع العربي أنذاك .فما من أحد إلا وتطاله يد الزمان القاتلة كما عبر ذلك النابغة قبل قرون ,لقوله [15]

مَنْ يَطْلُبِ الدَّهْرُ تدْرِكْهُ مَخالِبَهُ وَالدَهْرُ بِالوَتْرِ نَاجٍ غَيْرُمَطْلوبِ
مَا مِنْ أُنَاسٍ ذَوِي مَجْدٍ وَمَكْرُمَةٍ إلا يَشُدُّ عَلَيْهِم شِدَّةَ النِّيـبِ
حَتى يُبِيدَ عَلى عَمَدٍ سرَاتَهُمُ بالنَّا فِذَاتِ مِنَ النَّبْلِ المَصَاييبِ

وكما قال معاصره طرفة متحدثا عن سطوة الزمن ,وأنه لا شك سيتلقى ضربته القاضية يوما مثلما تلقاها من قبل عاد ,وغيرهم من الأقوام الذين قضوا :[16]

وَلَقَدْ بَدَالي أَنَّهُ سَيَغوُلني مَا غَالَ عَاداً أَوْ القُرُونَ فَأَشْعَبُوا

وسهام الدهر سديدة لا تخطئ هدفها أبدا ,فكيف للإنسان أن يتقيها ؟ أن هذا ما يحيل عنترة على التساؤل الذي يحمل غرض الإنكار , مؤكدا بذلك عجز الإنسان في مواجهة الدهر أو الزمن .فيقول :[17]

وَمَنْ ذَا يَرُدُّ المَوْتَ أَوْ يَدْفَعُ القَضاَ وَضَرْبَتَهُ مَحْتُومَةٌ لَيْس تَعْثُرُ

فالزمن اذن كقوة مدمرة ,والموت وحتميته ,هي مشكلة كل إنسان ,ومأساة المجتمع الإنساني ككل ,ولهذا ,فالشاعر كما أسلفنا عندما يستوقف الصحب إنما يريد أن يستوقف المجتمع بعامة .

ومع كلمة "نبك" في صيغتها الجماعية يتأكد لنا الفعل الجماعي الذي يدعو إليه امرؤ القيس .فبعد أن استصرخ بني جنسه للوقوف في مواجهة الزحف الزمني المدمر الذي مارس تدميره هنا بواسطة الجفاف، والذي بموجبه ترك الأهل الديار إلى ما آلتإليه ,بعد هذا ,طلب منهم البكاء .

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ولهذه الكلمة "نبك" جدلها , فبقدر ما توحي بالعجز والاستسلام ,تعكس كذلك رفضا وان كان سالبا لمأساة الطلل .وإذا كنا نعلم أن السبب الجوهري في خلق هذه المأساة هو الجدب والتصحر أمكننا أن نستأنس بعد ذلك بقراءة الدكتورة "ريتا عوض " لهذه الكلمة ,حينما اعتبرت البكاء معادلا للماء وبديلا عن المطر.

تقول :"وكان البكاء على الأطلال تعويضا عن الماء الذي حبسته السماء .....انه صيغة أخرى من صيغ الاستسقاء فان لم يكن بمقدور الشاعر أن يلزم الطبيعة بأن تجود بالماء فليفجر الماء من عينيه استمطارا للسماء ,وبرهانا على ظنه يملك زمام نفسه على الأقل ولو وقف عاجزا أمام الطبيعة"[18]. ثم يأتي كلمة "ذكرى "لتكشف عن سبب البكاء ,بعد أن سبقها حرف الجر(من)الذي أدى دورا لربط بين البكاء وسببه والذكرى –بلا شك –تقترن بالزمن وتعود بنا إلى مرحلة انقضت من حياة هذه الديار.

فالشاعر يتذكر أشياء مضت وانتهت .غير أنها تحيل أيضا على زمن أخر هو زمن من الوقوف على الطلل.ومن هنا تضعنا هذه الكلمة أمام زمنيين متناقضين كل التناقض,الماضي السعيد العامر بالحياة والحيوية ,في مقابل زمن الوقوف على الطلل وهو الحاضر التعيس الذي يستمد تعاسته من مشهد الديار الخربة ,التي توحي بالوحشة والفناء .

وفضلا عن هذا ,فقد يصَّحُ لنا –الذكرى –على أنها وسيلة الشاعر ليتحدى قهر الزمن ,حين يجعله طيّعا فييده فيستحضر منه ما يشاء بفعل التذكر,ويعيش لحظة مرحة مشرقة وسط أجواء حاضرة القاتمة .

حتى وان كنا ندرك يقينا مع الشاعر أن هذا الزمن المستعاد لا يمكن أنيحول زمن الواقع أو يلغيه .وهذا ما يسلمه إلى البكاء ليكون شاهدا على هزيمته .ولكنه يعبر في الوقت ذاته عن الإرادة والرغبة في تخطي العجز ,ففي البكاء –كما سبق –علامة رفض للواقع ,وفيه أيضا استمطار للسماء .ووصولا إلى كلمتي "حبيب " ",ومنزل "اللتين أضيفتا "للذكرى",يتحدد أكثر سبب البكاء ,فهو لفقدان "المرأة "و" الديار".

أما المرأة فهي تمثل صورة من صور المقاومة والتحدي لقوى الفناء ,باعتبارها رمزا للخصوبة والنماء والتوالد ,واستمرار الحياة حيث تبدو في الشعر الجاهلي ,كما

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ذكرد.ابراهيم عبد الرحمان :"كائنا غريبا يتميز بصفات وقدرات خاصة تنأى عن دائرة البشر ,يمكننا تلخيصها في صفة عامة غالبة عليها ,هي صفة "الخصوبة "وهي صفة تستغرق صفاتها الأخرى ...وتتراءى غالبا في مقدمات القصائد الطللية في صورة المرأة المحبوبة التي تحمل معها الخصب,وتخلف وراءها الخراب والفناء"[19]ولقد تأكد هذا الربط بين المرأة والخصب في توظيف شعراء الجاهلية على اختلافهم وتعدد قصائدهم ,منخلال صورة مختلفة ,كتشبيهها بالغزالة ,والظبية والمهاة ,والنخلة المثمرة ,والشمس .وما إلى ذلك من العناصر التي تؤدي هذه الدلالة .وفي وسعنا أن نستعر ضأكثر من نموذج عن هذا الجانب .من ذلك ما نقرأه في معلقة امرئ القيس ,حيث يقول واصفا حبيبته :[20]

كَبِكْرِالْمُقَانَاةِ البَيَاضِ بِصُفْرَةٍ غَذَّاهَا نَمِيرُالمَاءِغَيْرُالمُحَلَّل
تَصُدُّ وَتُبْدي عَنْ أَسيلٍ وَتَتَّقي بِنَاظِرَةٍ مِن وَحْشِ وجْرَةَ مُطْفِلِ(*)
وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ اِذَا هي نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَـطَّل (**)
وَفَرْعٍ يُزِينُ المَتْنَ أَسوَدَ فَاحِمٍ أَثْيثٍ كَقِنْوِالنَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ (***)

فقد ربط في البيت الأول بين المرأة وبيضالنعام فيما يخص لون البشرة الأبيض الذي تخالطه صفرة.

وفيالبيتالثاني بينها وبين الظبية ,حين شبه جمال عينيها بظبية مطفل تنظرإلى صغيرها في حنو وعطف ورقة ,وهو ما يزيد عيونها حسنا على حسن .وفي البيت الثالث أيضا ,تستقطب إعجاب هذه الغزالة البيضاء في امتداد عنقها وانتصابه,ليستعيره لهذه المرأةالمثال التي يحاول أن يصنع لها تمثالا عجيبا يستجمع مادته منأحسن ما تقع عليه من صفات الجمال في الحيوا ن,أو النبات ,أوعناصر الكون المختلفة .

وفي البيت الرابع ,يجمع بين المرأة والنخلة المثمرة ,فيبدو له شعرها الكثيف الذي يكسو الظهر في صورةعنقود التمر المتدلي من أعلى النخلة .

فنحن حينما نتأمل هذا الوصف ,سنجد أن مادة صوره على اختلافها ,من بيض النعام ,إلى الظبية الطفل,إلى النخلة المثمرة ,كلها تحمل معاني الخصب والأمومة .

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ومن هذه الصور التي شاعت في الشعر الجاهلي كذلك ,الجمع بين المرأة والشمس للإيحاء بصفة الأمومة والنماء .

فهي تمثل المعبود الأم[21] المعروف في الديانة الوثنية.ولهذا رمز شعراء الجاهلية للشمس "بالمرأةالتي تتحلى بأنوثة تجعل منها كائنا واعدا باستمرار الحياة ,وأما قادرة على استمرار الحمل والولادة [22]ومن هنا نفهم سر التفات طرفة مثلا إلى الشمس في وصفه لصاحبته ,اذ يقول :[23]

وَتبْسِمُ عَنْ أَلَمى كأَنَ مُنَوّرَاً تَخَلَّل حُرَّ الرَمْلِ دِعْصٍ لَهُ نَـد(*)
سَقَتْهُ إِيَاهُ الشَّمْسِ إلاَّ لِثَاتِهِ أُسِفَّ وَلَمْ تَكْدِمْ عَلَيْهِ بِإِثْمَـدِ(**)
وَوَجْهٍ كأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رَدَاءها عَلَيهِ نَقِيُّ اللّوْن لَمْ يَتَخَـدَّد(***)

فهو يصف أولا ثغر هذه المرأة ,ويضفي على شفتيها اللون الأسود الذي تخالطه حمرة ,وكأنما قد نبت فيهاأقحوان خرج نوره ,وهو من الضياء بحيث يبدو للناظر وكأنه قد ألقيت عليه أشعة الشمس المتلألئة المضيئة .ويظل فيالبيت الثالث مشدودا إلى الشمس ونورها ,حين يصف وجه صاحبته بالوضاءة والاشراقة.

فكانت الشمس –بذلك – مصدر النماء والحيوية الذي وهب هذه المرأة شبابها وحياتها المتدفقة.

ومن صور الوصف التي تؤكد دلالة المرأة على الخصب أيضا ,أن يقرن الشاعر بينهما وبين الماء ,على النحو الذي نجده عند عنترة في قوله :[24]

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيذِ المَطْعَمِ
وَكَأَنَ فَارَةَ تَاجِرٍبِقَسِيمَـةٍ سَبَقَتْ عَوارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الفَمِ
أَوَرَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَهَا غَيْثُ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمَعْلَم
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرِحُـرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ

ففي هذه الصورة البديعة الطريفة ,جمع الشاعر بين ريق صاحبته وبين مظاهر الخصب وعناصره ,كهذه الروضة الأنف وهاته السحابة البكر ,ليشكل منها مخلوقا قادرا على بعث الحياة ومواجهة الموت فهذه النماذج التي تقدم ذكرها ,تكشف بوضوح عن صور الحياة والتوالد والنماء التي اقترنت بصورة المرأة,فشكلت بذلك

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

رمزا للخصوبة .وقد تداوله الشعراء واتخذوا منه أداة فنية فعالة لمواجهة مظاهرالعقم والجفاف والموت .

وتأسيسها على هذا ,يستقيم لنا القول بان امرأ القيس في المعلقة لا يبكي امرأة بعينها,قد رحلت وتركته سجين الذكريات ,تستبد به الحسرة والأسى لفراقها ,وإنما هوفي الواقع يبكي رحيل الخصب وتراجعه أمام قوى الفناء .

وإما كلمة "منزل" فجاءت معطوفة على الحبيب ليتعلق بها البكاء أيضا .ولن نستسيغ القول بأنه يعني منزل الحبيبة أودارا بعينها ,طالما قد أمنا برمزية هذاالحبيب (المرأة).

ومما ينفي صفة التعيين هنا أيضا أن الكلمتين "حبيب ومنزل"قد وردتا في صيغة التنكير .فهو اذن منزل جماعي عام ,أو فلنقل ,منزل المجتمع ككل,الذي غاب عنه الخصب فتركه أهله مرغمين ,ناجين بأنفسهم من فعل التصحر والجفاف ,وطالبين مستقرا آخر تتوفر فيه فرص الحياة .وبذلك تحول المنزل إلى ما تحول إليه من الهدم والخراب .فلم يعد يمثل سوى (ذكرى منزل) .

إن هذا المشهد اذن هو في النهاية رمز لذلك التهدم الحضاري الذي شهده العرب عبر تاريخهم الطويل ,بفعل عوامل الطبيعة التي تتلقى القهر وتمارسه في الوقت نفسه.

ومن هنا غدا الطلل :"تقليدا راسخا,لأنه يستجيب إلى حاجة ملحة في الذات العربية قبل الإسلام ,ويعبر عن مأساة حضارية جماعية في الوقت ذاته .إنهامأساة الانهيار الحضاري الذي حول الحياة المدنية والزراعية المستقرة في كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية إلى حياة بدوية رعوية قاسية .إنهامأساة الجدب والتصحر الذي ابتلع الخصب وقضى عليه ,فسقط في يد الإنسانالذي ابتلي بالترحيل وعدم الاستقرار.

وأصبح العيش صراعا مع الزمن المتحول والأرض المجدبة والإنسانالآخر الساعي إلىالاستئثار بالقليل القليل الذي تهبه الأرض.[24]

وحينما يجمع الشاعر الرمزين معا (حبيب ومنزل) فانه يشير إلى ذلك الفقدان الشامل ,والى حجم المأساة التيتشغل ذهنه ووجدانه .إنها مأساة الإحساس بالمصير المرعب والحقيقة المروعة بانتصار الموت وفعل التناهي.

ومن هنا يستمد البكاء قيمته وعمقه كرد فعل على هذا المال المفجع ,وهذه النهاية المأساوية .يقولوهب أحمد رومية في هذاالصد د :"من حق امرئ القيس أن يبكي هذا

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

البكاء الحار المتصل ,ومن حقه أن يدعو بني جلدته إلى البكاء ويحضهم عليه إنها "جنازة "الجنس الإنساني عامة ,لا جنازة فردواحد,اوجماعة واحدة.[25]

ومن جهة أخرى ,فان هذين الرمزين يرسخان في الشاعر ,الإحساس بالتحول في الحياة ,وعدم الاستقرار.وهذا ما يجعله يتطلع إلى البحث عن الثبات والاستقرار ,ويحاول أن يمسك بالوسائل التي تحقق له ذلك,من خلال هذه الأماكن أو أسماء المواضع التي يذكرها في طلليته ,ومنها :(سقط اللوى,الدخول, حومل, توضح, المقراة).حيث يتشبث بها ,ويحرص على أثبات وجودها وتحديد معالمها ,وذكر أسمائها وكأنما يريد أن يقول بأعلى صوت بأن الحياة مازالت هاهنا ,وأن الموت لم يأت على كل شئ ,وكأننا به أيضا يشهر سلاحا يتحدى به الفناء .والى مثل هذا تشير د.ريتا عوض بقولها :"في مقابل ذلك الحس الفاجع بالزمان وسطوته وفعله المدمر ,تبرز أهمية المكان فيلجأ الشاعر إلى خلق التوازن في الحياة الإنسانية ,فيبدع صورالمكان ويحدد تخومه .وكيف يوجد ذلك المكان ?يوجده بالتسمية ,إذ إنإطلاق الاسم معادل لعملية الخلق ".[26]

وقد كان للمكان حضوره الدائم في طلليات امرئ القيس ,ثم صار عنصرا يتكرر في طلليات الشعر الجاهلي من بعده ,وذلك ما أكسبه دلالته الرمزية التي تنصرف إلى هذا التحدي والصمود في وجه الزمن المدمر وعوامل الإفناء وحين نتأمل طريقة الصياغة والتركيب ,فان الملاحظ هو أن الشاعر أورد هذه الأسماء أو الأماكن في صورة متتابعة متلاحقة ,وفي إيقاع سريع ,بحيث لا تفصل بين اسم وأخرإلا فاء الربط والعطف والتي بدورها تحقق هذا التسارع :(بسقط اللوى ,بين الدخول. فحومل,فتوضح ,فالمقراة) وكأننا بامرئ القيس يسارع إلى تشكيل رد الفعل ,أو بالأحرى ,استجماع ما أمكنه من قوى الحياة في مواجهة هذاالموت.

وإذا تمعنا في دلالة هذه الأسماء سنجد أن فيها ما يشكل جدلا واضحا مع فكرة الجدب التي تشغل بال الشاعر .وهي تعكس –بذلك –ما يسكنه من صراع .انه وقد استبد به الإحساس بالخراب والفناء ,راح يلوذ بالكلمة التي توفر له الخصب والحياة,فاهتدى إلى كلمتي:"حومل "و"المقراة" ,اذ تعبر الأولى عن السيل الصافي,وتفيد الثانية موضع تجمع الماء ,فعسى بواسطتها إلي تحقيق الخصب ,ولو فنيا عن طريق

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

اللغة,ليؤكد رفضه وصموده . وعندما نصل إلى كلمة "لم يعف "تتعزز سلطة المكان أكثر في إثبات الوجود وتأكيد الحياة .إن أثار هذه الديار ورسومها لم تنمحي,بل ظلت شاخصة مقاومة لفعل الهدم ,وقد استعان الشاعر بأداة الجزم والنفي (لم) بكل ما تحمله هذه الأداة من قوة النفي ليقول لا للخراب الشامل ,ولا للتناهي بل ليعلن انبعاث الحياة من رحم الموت ,عبر هذه الرسوم التي هي بمثابة جذور الحياة على حد تعبير د.مصطفى ناصف .[27]

أما هذا الطباق بين "جنوب "و" شمال " فيضفي عمقا أخر على هذا الصراع بين البقاء والفناء ويزيده سفورا وظهورا .فبالإضافةإلى هذا التضاد بين الكلمتين ,ثمة تضاد أخر على مستوى الوظيفة لكل منهما,فاذا كانت ريح الجنوب المحملة بالأتربة ,تقوم بفعل التعفية والطمس لآثار الديار ,فان مهمة ريح الشمال على النقيض من ذلك ,تكون سببا في التعريةوالكشفعن تلك الرسوم .ومن هنا تتشكل صور المفارقة بين الريحين لتعكس ذلك الجدل القائم في ذات الشاعر ,الذي يسعى بكل قواه إلىإيجاد الوسيلة الكفيلة بمقاومة إرادة الموت .ف"الجنوب "هنا تغطي وتغيّب الحياة,لكن "الشمال "تدعو إليها ,وتنصب الرسوم الشاخصة المكشوفة شاهدا على وجودها وانبعاثها .

وما يلاحظ على مستوى التركيب أن ريح الشمال تالية لريح الجنوب ,وكأننا بالشاعر –وان كانت القافية تستدعي ذلك –تخير لها هذا التركيب لتقف حارسا على هذه الرسوم فكلما أقبرت (الجنوب) الحياة وأجهزت عليها تحت كومة من التراب والرمال ,فان (الشمال) تكشف عنها وتبعثها من جديد .وهذا ما يبيح لنا القول بان ريح الشمال تؤكد روح التحدي لدى الشاعر والإنسان بعامة لسطوة الزمن وجبروته,بل قد يتعدى الأمر حدود التحدي والمقاومة إلى الانتصار على إرادة الفناء ,وفق ما يرى د.ابراهيم عبد الرحمان الذي يقول بهذا الشأن :"وتتمثل فيما يتصل بالوقوف على الإطلال في "انتصار "إرادة الحياة على إرادة الفناء من خلال صورتين دالتين ,تظهر الأطلال في الأولى وقد غطتها الرمال التي حملتها ريح الجنوب رمزا على الفناء الذي - اخذ ينشر ظلاله على هذه الديار بعد رحيل المرأة عنها .ولكنه فناء لا يلبث أن ينهزم ويتوارى أمام إرادة الحياة التي تحملها ريح الشمال ,فتزيل عليها ما تراكم عليها من

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

رمال وتعيد بذلك إليها روح الحياة التي افتقدها"[28].

أما كلمة "نسجتها " التي سبقت عبارة "جنوب وشمال "فهي نتاج تفاعل الريحين وهي علامة الحيوية والحركة التي أثبتت للرسوم بقاءها ,وأعادت ملامح الحياة للطلل.

وحينما ننتقل إلى البيت الثالث ,سنقف على مفردات مثل :"بعر الآرام"عرصاتها وقيعانها "وحب فلفل" .وهي تحمل من المعاني ما يعبر عن هذا الصراع بين الحياة والموت .حيث تنكشف لنا معالمه أولا من خلال المفارقة الموجودة بين المشهدين المتقابلين المتمثلين في مشهد الديار الخالية من أهلها وقد هجرها الإنسان مند فترة. والذي تولد بموجبه مشهد جديد يتمثل في امتلاء هذه الدار بالحيوانات الوحشية.

وبمعنى آخر ,فان مشهد الدار العامرة بالحيوانات ,يستدعي مشهدا مقابلا له وهو مشهد الدار الخالية من أهلها الحقيقيين ,أي من الإنسان.

وبقدر ما توحي هذه المفارقة بتعلق الشاعربالحياة وإصراره على استمرارها ,حتى وان تمثلها في هذا الشكل الحيواني,فهي تحيل أيضا على صور الموت .ذلك أن إسكان الحيوان بهذه الديار كبديل عن الإنسان هو في حد ذاتهإمعان في تصوير حالة الإقفار ,بالمستوى الذي جعل هذه الحيوانات الوحشية تأوي إلى هذا المكان وتألفه وتطمئن إليه.ولا يتحقق لها ذلك –بطبيعة الحال – إلا بتغيب الإنسان تغيبا تاما .وإذا اعتبرنا غياب الإنسان هنا مرادفا لفنائه ,فان كلمة "بعر" تأتي لتعمق هذا المعنى أكثر وهي إن صح لنا الاعتقاد تحل محل (الذكرى) في البيت الأول .أنهاذكرى عن الحيوان وشاهد على أنه يرتاد هذا المكان .لكن في مقابل هذا الاقفرار,وهذا الفناء ,تأتي كلمة "الأرام " كحامل قوي دال على الحياة والنماء .فلم تخير الشاعر هذا الحيوان دون سواه ?إننا حينما نعود إلى شعر امرئ القيس ,وشعر غيره من شعراء كثيريين في الجاهلية ,سنقع على هذه الصورة النمطية المتكررة التي تربط بين المرأة والظبية ,ومن هؤلاء الشعراء الذين شاعت عندهم هذه الصورة بكثرة ,الأعشى الذي نقتطع من ديوانه قوله:[29]

وَجِيدٍ مُغَزِلةٍ تَقْرُو نَوَاجِدُها مِنْ يَانِعِ المَرْدِ مَا اِحْلَوْلَى وَمَا طَابَا(*)

كما يصف صاحبته "قتيلة"قائلا:[30]

ظَبْيَةُ منْ ظِبَاءِ بَطْنِ خُسَافِ أُمُّ طِفْلٍ بِالجَوِّغَيْرِرَبِيبِ(**)

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ويشبه النساء المرتحلات بالغزلان ,وقد اتخذت لها زي النساء من البرود والأثواب,فيقول :[31]

أَصَاحِ تَرَى ظَعَائِنَ بَاكِرَاتٍ عَلَيْهَا العَبْقَرِيَّةُ وَالنُّجُودُ(***)

كَأَنَّ ظِبَاءَ وَجْرَةَ مُشْرَفَاتٍ عَلَيْهِنَّ المَجَاسِدُ والبُرودُ(****)

وما أكثر هذه التشبيهات التي يقيمها الأعشى بين المرأة والظبية والذي يعود إلى ديوانه يظفر بما يغنيه منها .[32]

وعندما نعود إلى امرئ القيس نجده في المعلقة ذاتها يشبه عنق صاحبته الطويل ذي الحركة الرشيقة بجيد الغزالة الخالصة البياض ,قائلا [33]

وَجِيدٍ كَجِيدِالرِّئمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَاً هِيَ نَصَتْهُ وَلاَ بِمُعَطِلِ

وقوله في قصيدة أخرى :[34]

وَمَاذاَ عَلَيْهِ أَنْ ذَكَرْتُ أَوَانساً كَغِزلانِ رَمْلٍ فِي مَحارِيبِ أَقْيالِ

إنهذا الربط الذي هو كثير الدوران في شعر الجاهلين ,لا يمكن أن يكون مجرد تقليد شكلي يحاول أن يستكمل به الشاعر الصورة في مقطع النسيب ,إنما هو تكرار يجعل منه أداة فنية رامزة تقول شيئا معينا، لايمكن استخلاصه من خلال الفهم المباشر,أو بالأصح ,انطلاقا من المعنى الظاهري .ان الشاعر الجاهلي قد ربط بين الظبية والمرأة في غير ما موضع ليضفي على هذه المرأة طابع القداسة [35]والخصوبة, مثلما فعل أيضا في معرض تشبيهه لها بالشمس ,الآلهة الأم وحاملة الخصب .يقول د. إبراهيم عبد الرحمان :وعلى الرغم من إلحاح الشعراء على تشبيه المرأة بالغزالة والظبي والمهاة والشادن وغيرها في صور تشبيهية ,حرصوا على أن يجمعوا فيها بين عناصر الخصوبة والجمال ,فانه قد برزت من بينها جميعا صورة بعينها غلبت على ما عداها من الصور الأخرى ,هي صورة الغزالة.[35]

والذي أريد الوصول إليه من وراء هذا الطرح أن (الرئم) المذكورة في البيت الثالث من الطللية يلوح بهذه الإشارة إلى المرأة التي تعني للشاعر الخصوبة والحياة ,ويعد بذلك رد فعل ايجابي قوي على حالة الإقفار التي تقوم شاهدا على الموت والفناء .ثم يأتي إثبات الشاعرللمكان في كلمتي (عرصاتها وقيعانها) دعما لهذا الفعل الايجابي في مواجهة الغياب والفناء. ومن علامات هذه الخصوبة التي ينشدها الشاعر,ما تكشف

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

عنه صورة البعر المنتشر كحب فلفل منثور في كل موضع من ساحة الدار ,فهذا الانتشار الواسع للبقايا يجعلنا نتصور أن هناك قطعانا كثيرة من الحيوانات ترتاد الدار ,وفي هذه الكثرة دلالة على الخصوبة والتوالد والحياة .ولعل هذا المشهد ما ينمي صورة التحدي ,والإصرار على البقاء,الذي وقفنا عليه من قبل في عبارتي (لم يعف) و(جنوب شمال) .

وقبل أن نتحول عن هذا البيت ينبغي أن نشير إلى أن عبارة "حب فلفل " تحتاج إلى وقفة والى تأمل,وتثير كثيرا من السؤال .فما الذيجعل الشاعر يستوحي حبات الفلفل في هذا المشهد ?هل كان ذلك عفويا؟هل هو لمجرد المشابهة الشكلية بين طرفي التشبيه ?هل هو للإيحاء بوفرة هذه البقايا ? ربما لا نجد فيالإجابة عن كل هذه الأسئلة ما يفي بالغرض ,ويكشف عن مرمى الشاعر الحقيقي ,لكن يبقى أن نقول بان (الفلفل)عنصر من متعلقات الإنسان ,وعليه ربما صح لنا التأويل بان استحضاره في هذا المشهد يكشف عن فكرة تؤرق بال الشاعر ,وهي السعي إلى استعادة الإنسان إلى هذه الدار ,وان الحياة الحقيقية التي يتطلع إليها في النهاية هي الحياة الإنسانية ,لا الحيوانية التي قدمها بداية كبديل عن المجتمع الإنساني وفي البيت الرابع ,ينعكس وجه آخر من وجوه هذه الدراما ,يشكله الشاعر انطلاقا من عبارتي :"تحملوا "و"سمرات الحي"ففي الأولىإعلان لخبر رحيل الحبيبة وأهلها وذلك ما حمل الشاعر على أن يذرف دموعا سخية .وقد ارتبطت لحظة البكاء في هذا البيت بجانبي الحنظل ,لتعكس غزارة الدموع من جهة ,ومرارة الفراق من جهة ثانية .والبكاء هنا ليس من أجل الحبيبة التي رحلت رفقة ركب قبيلتها ,إنما هو في أبعاده العميقة بكاء على رحيل الحياة برحيل رمز الخصوبة والنماء (المرأة) .وهو يعكس بقوة إحساس الشاعر العميق بالهزيمة وقهر الزمن .

غير أنَّه في غمزة هذا الإحساس بالضعف ,يحاول أن يلتقط أنفاسه من جديد ويبحث عن الوسائل التي تمكنه من تجاوز هذا القهر وهذا الموات , فيلتفت إلى شجرة "السمرة "ليوظفها كرمز للمواجهة والثبات,وكمظهر من مظاهر الحياة التي يحرص على إبقاءها داخل الحي المهجور الذي تحول إلى صورة للفناء.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

فشجرة السمر كما ورد في لسان العرب ,تعرف عند العرب أيضا باسم "أم غيلان"[37]وهو آت من كلمة الغيل التي معناها "الماء الجاري على وجه الأرض..والغيل كل موضع فيه ماء من واد ونحوه.والمغيال:الشجرة الملتفة الأفنان الكثيرة الورق ,الوافرة الظل [38]ومن هذا المعنى اللغوي لكلمة غيلان المرادفة للسمرة ,يقترن هذا النوع من الشجر بدلالات الخصب .كما أن في تسميتها لدى العرب بأمغيلان ما يجعلها مرادفا للمرأة الأم الولود التي تحفظ البقاء والاستمرارية .

وانطلاقا من هذا المفهوم"سمرات الحي "كما وظفها الشاعر معادلا لنساء الحي المرتحلات ,ومنه نفهم سرّ التجائه لهذه الشجرات ,فهي مظهر الحياة ومصدرها في أن .إنّه يريدأن يقول :إذا كانت الحياة والخصوبة قد فارقت المكان برحيل الحبيبة,فإن هناك حياة أخرى مازالت تسجل حضورها ,وتتصدى بكل قوة لعوامل الفناء ,من خلال السِّمرات التي تمثل رمزالثبات والاستمرارية .

أما في البيت الخامس ,فيتجسد الصراع واضحا من خلال ثنائية الأمل واليأس التي عبر عنها الشاعربكلمتي :"لا تهلك "و"تجمل " .ففي حين تغمره المأساة وتشرف به على الضياع ,يلتفت فإذا بالمنقذ ماثلا أمامه ممثلا في هؤلاء (الصحب) الذين أوقفوا ركائبهم عليه ,وأخذوا بيده يخففون عنه وطأة الإحساس بالفشل والهزيمة ,ويفتحون أمامه بابا من الأمل .

وفي البيت السادس تلفت انتباهنا "الدمعة المهراقة ",وهذا التساؤل اليائس ,حيث يكمّلان بعضهما البعض,ويعبّران عن الإحساس بالفشل والاستسلام .فهذه الدموع الغزيرة ,وهذا الوقوف غير المجد عند رسم دارس وكأنّه ميت مسجَّى,كلاهما يوحي بحالة من العجز.

غير أن العبارتين يمكن أن توحي بدلالات أخرى ,ربما تكون على نقيض هذا المعنى,وتفسَّر على أنَّها تكشف عن موقف إيجابي للشاعر في محاولة تخطي الهزيمة والمأساة ,من خلال الرفض الذي نستخلصه من البكاء ذاته .وقد سبق توضيح ذلك في المطلع .وأنَّ شفاء الشاعر لا يتحقق إلابمواجهة ورفض هذا الموت والفناء الذي يشيعه الرسم الدائر.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

ويؤدي الاستفهام في الشطرة الثانية معنى الرفض أيضا ,خاصة وانَّ أداته (هل) قد جرِّدت من وظيفتها الحقيقية ,وشحنت بمعنى جديد يفيد النفي.

وعندما نعيد قراءة العبارتين لا شك نحس أن هناك سخرية حزينة من انتظار جدوى من الدموع ,أو فائدة من هذا الرجاء عند مكان مقفر ميت ,وما نصل إليه من وراء هذا ,هو أنَّ هناك إنكارا سافرا لوضع الديار,ورفضا لها يدعو إلى ضرورة التحول عن تلك الصورة ,ومحاولة بعث الحياة فيها من جديد.

أما البيت السابع فيضيف تجارب طللية أخرى للشاعر مع نساء أخريات"أم الحويرث"و"أم الرباب "وهي تجارب سابقة لهذه ,بدليل كلمتي "قبلها "و"كدأبك" أي كفعلك مع هاته وتلك .وأما هذا الفعل فهو البكاء علىرحيلهن الذي يساوي –كما أسلفنا –رحيل الخصوبة والحياة .

وفي البيت الثامن تركيز على جانب الإثارة الجنسية التي تحققها عبارات "تضوع المسك" ,"نسيم الصبا","ريا القرنفل" .هده الإثارة التي بدأت في البيت السابق بذكر أسماء لصواحب امرئ القيس .وهو ما يعكس خصوبة في التجارب العاطفية للشاعر,ويصوِّر إقبالهعلى الحياة في مواجهة الموت عن طريق تحقيق مبدأ اللذة .

فكانت هذه التجارب في الحقيقة "وسيلة فنية يصَوِّرمن خلالها إحساسه الأصيل تجاه الطلل"[39]ثم ما بال امرئ القيس يتخيَّر منالنساء من سبق لها الزواج ,وكانت أُمَّا :(ام الحويرث) و(أُمَّ الرباب)؟

إن لهذا الاختيار معناه العميق ,فهو يريد امرأة وَلُودَا قادرة على الإنجاب ,لأنه في النهاية ينشد الخصوبة,والقدرة على حفظ البقاء والاستمرار.

أما هذا الفيض الَّسَّخِيُ من الدموع الذي يختم به الطللية،فهو-ان صح لنا الفهم- عود على بدء،إنَّه يلتقي بالبكاء الاول في المطلع الذي يوحي بذلك الجدل القائم بين رحيل الحياة من جهة ,ومحاولة بعثها في الديار من جهة ثانية .فهذه الدموع الغزيرة التي ضخمَّها الشاعر وتحول بها إلى صورة (الفيض) تعزِّز مرة أخرى فكرة الربط بين البكاء واستمطار السماء ,لأجل بعث جديد وحياة تنبثق من صميم الموت ,وبقاء في مواجهة الفناء .

بيبليوغرافيا

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

(1): ابن قتيبة/ الشعر والشعراء/ ط3/ دار الأحياء والعلوم/ بيروت/1983/ص31-32.

(2): عز الدين إسماعيل / مقال :"الوجودية في الجاهلية / مجلة المعرفة السورية / السنة الثانية / العدد الرابع / يونيه 1963/ص156-161.

(3): عبد الله التطاوي / مدخل ومشكلات حول القصيدة العربية القديمة /دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة/ط2/ 1996/ ص65.

(4):يوسف خليف / دراسات في الشعر الجاهلي /دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع /القاهرة /ص119.

(5):حسين عطوان /مقدمة القصيدة العربية القديمة في العصر الجاهلي /ط2/دار الجيل /بيروت /ص241.

(6) (7):يوسف اليوسف /مقالات في الشعر الجاهلي /ص140/منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي –دمشق/1975

(8)(9):المرجع السابق/ ص129.

(10) :المرجع السابق /ص130.

(11): إبراهيم عبد الرحمان /الشعر الجاهلي ,قضاياه الفنية والموضوعية /لونجمان /ط1/2000/ص128/مكتبة لبنان ناشرون –الشركة المصرية العالمية للنشر .

(12):المرجع نفسه /ص128.

(13): امرؤ القيس / الديوان / دار بيروت للطباعة والنشر /بيروت /1983/ ص29-31.

(14):مصطفى ناصف /صوت الشاعر القديم /الهيئة المصرية العامة للكتابة /1992/ص11.

(15):النابغة الذبياني /الديوان/تحقيق وشرح ,كرم البستاني /دار صادر –بيروت /ص21.

(16):طرفة بن العبد /الديوان /المكتبة الثقافية /بيروت –لبنان /ص12.

(17): عنترة /الديوان /دار بيروت للطباعة والنشر /بيروت –لبنان /ص147.

(18):ريتا عوض /بنية القصيدة الجاهلية :الصورة الشعرية لدى امرئ القيس /ط1/دار الآداب –بيروت /1992/ص187

(19):إبراهيم عبد الرحمان /الشعر الجاهلي ,قضاياه الفنية والموضوعية /ص133.

(20):امرؤ القيس /الديوان /ص 43-44.

(*): تصد :تعرض –تبدي :تظهر-أسيل :صفة الخد الطويل –وجرة :اسم موضع – مطفل:البقرة التي لها صغيرها .

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

(**): الرئم :الظبي الخالص البياض –نصته:رفعته – المعطل :الذي يخلو من لبس الحلي .
(***):الفرع:الشعر التام –فاحم :شديد السواد –الأثبث-القنو :هو النخلة بمثابة العنقود في العنب-المتعثكل :المتندلي .

(21): الشمس :رمز ديني ,يشير إلى الديانة الوثنية في شكلها المعروف بعبادة الكواكب .وهي عبادة كانت تتألف من ثالوث سماوي ,هو القمر ,والشمس,والزهرة ,يؤلف عائلة صغيرة,يمثل فيها القمر دور الأب ,والشمس دور الأم ,والزهرة دور الابن أو الابنة :عبد العزيز سالم /للطباعة والنشر /الإسكندرية /1967/ص409-410/مؤسسة الشباب الجامعية.

(22) :إبراهيم عبد الرحمان /الشعر الجاهلي /ص134.

(23):الزوزني /شرح المعلقات السبع/دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر –بيروت /1969/ص117-118.

(*):الألمى :الذي يميل لون شفتيه إلى السواد –المنور :يقصد به الأقحوان المنور-حر الرمل:خالصه-الدعص:الكثيب من الرمل –الندي :دون الابتلال .

(**):أياة الشمس:شعاعها –الثالث :من اللثة وهي مغزز الأسنان –الكدم :العض– الأثمد:الكحل .

(***):التخدد:التشنج.

(24): عنترة /الديوان /ص17- 18.

(24): ريتا عوض /بنية القصيدة الجاهلية /ص187.

(25): وهب أحمد رومية /(رؤية الذات في القصيدة العربية القديمة),مجلة عالم المعرفة :شعرنا القديم والنقد الجديد /العدد207/شوال 1416هـ مارس1996/سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب /الكويت /ص230 .

(26): ريتا عوض/بنية القصيدة /ص189.

(27):مصطفى ناصف /قراءة ثانية لشعرنا القديم /ط2/دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع /1401-1981 ص62.

(28): إبراهيم عبد الرحمان /الشعر الجاهلي ,قضايا ه الفنية والموضوعية /ص164.

(29): الأعشى /الديوان /ص20.

(*):المغزلة :أم الغزال –تقرو:تتبع- نواجدها :أسنانها –المرد:شجر الأراك .

(30):المصدر نفسه /ص 39.

ISSN : 2353-0464
EISSN : 2600-6421

(**): بطن خساف :موضع قرب مدينة حلب بالشام –الجو :الأرض المنخفضة –الربيب :ابن المرأة من زوجها الأول .

(31):المصدر نفسه /ص97.

(***): الظغائن :النساء المرتحلات –العبقرية :البسط الموشاة –النجود :الستائر .

(****):المجاسد :المجسد ,هو الثوب المصبوغ بالزعفران –البرود :الأثواب اليمنية .

(32): ينظرفي ذلك ديوان الأعشى/الصفحات: 116-172-189-212-234-239-245-264-316.

(33): امرؤ القيس /الديوان /ص44.

(34): المصدر نفسه /ص142.

(35):السيد عبد العزيز سالم /تاريخ العرب قبل الإسلام /ص407.

(36):ابراهيم عبد الرحمان /الشعر الجاهلي ,قضايا الفنية والموضوعية /ص222.

(37):ابن منظور /لسان العرب/ مادة (غيل)المجد5/ ص3330.

(38): المصدر نفسه /ص3329.

(39):محمد عبد المطلب مصطفى /الوقوف على الطلل/مجلة فصول [تراثنا الشعري]/ المجلد الرابع /العدد الثاني /يناير فبراير مارس 1984/الهيئة المصرية العامة للكتاب /ص158.